تأثير الصناعة المعجمية لبلاد المشرق في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي (بداية من ق 3ه وحتى ق 12ه)

The Influence Of Oriental Lexicography On Andalousian And Maghrebi Lexicography (For The 3Th Century Hijri To The 12TH Century Hijri)

صفية سعد سعود

جامعة المدية، الجزائر

Safiasadsaoud@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/28	تاريخ القبول: 2019/05/06	تاريخ النشر: 2019/07/15

ملخص البحث

يعرِض بحثنا هذا لمرحلة مهمة من مراحل التأليف المعجمي في التراث العربي في بلاد الأندلس والمغرب، وذلك بغية دراسة مختلف جوانب وحيثيات هذه المرحلة من خلال علاقتها بالصناعة المعجمية في بلاد المشرق.

هذه المرحلة هي مرحلة القرن الرابع الهجري الذي عرف ازدهاراً وتطوراً كبيراً في بلاد المغرب والأندلس في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، وهذا التطور كان نتيجة لسياسة حكيمة واجتهادات علماء كبار، ونال ميدان تأليف الكتب نصيبه من هذا التطور، وضمن هذا التأليف كذلك كانت الصناعة المعجمية مجالاً برع فيه العلماء فراحوا يألفون فيه العديد من الكتب والمعاجم وفي شتى المجالات المعرفية، وهذا التأليف المعجمي لم يظهر هكذا من العدم بل كان مستمداً من مختلف الدراسات المهمة التي كانت موجودةً في بلاد المشرق والتي انتقلت وسافرت مضامينها مع هجرة العلماء من العراق وبغداد نحو الأندلس والمغرب، فحملوا بذلك معهم البذور الأولى للصناعة المعجمية الأندلسية متأثرين بمدرسة الخليل ولاحقيه، فكان معجم العين الدائرة الأولى والكبرى التي حام حولها كبار علماء وأخذوا منها منهجهم في تأليف معاجمهم، هذا التأثر وأهم مظاهره هو ما سنحاول التطرق إليه في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: المعجمية– المعجم العربي– المعجم المشرقي– المعجم الأندلسي

Abstract:

Our research shows that a major phase of the lexical composition in Arabic tradition in Andalusia and the Maghreb, in order to study the various aspects and purpose of this point regarding the lexicography in the Levant.

This stage is the fourth century Hijri who knew a great development and prosperity of the Maghreb and Andalusia in the various areas of political, social and scientific life, and this development was a result of the wise policy and jurisprudence of senior scientists and the field of writing books its share of this development and to whom the copyright industry has also been a lexical familiar space scientists with so that they begin to excelled in many books and dictionaries and in different areas of knowledge, this creation of dictionary thus appears out of nowhere but has been derived from various important studies that were present in the Levant and moved and surrendered their content with the migration of scientists to the Iraq and in Baghdad about Andalusia and the Maghreb , they carried with them the first seeds of Andalusian lexicography succumbed to his proposed school of Alkhalil Ben Ahmed, Al - Ain dictionary was the first source from which experts have compiled their dictionaries.

The most important aspects of this impact are what we will try to study in this research.

Keywords : the lexicography - glossaries - Andalusians - Maghreb

مقدمة:

ازدهرت الحركة اللغوية في الأندلس وخاصة المعجمية منها خلال القرن الرابع الهجري، والقرون التي تبعته، فتطور مع هذه الحركة تأليف المعاجم في الأندلس والمغرب، وظلّ اللغويون والعلماء يعملون على هذا الجانب من التأليف لسد ثغرات في المكتبة الأندلسية وتلبية لحاجات المتعلمين الذين كانوا يزدادون في الأندلس طلباً للعلم والمعرفة مقبلين على علمائها الكبار هناك، وألّفت هذه المعاجم أيضاً مواكبةً التطور اللّغوي والحضاري الذي عاشته الحضارة الأندلسية على امتدادها التاريخي واللغوي، وهذا التأليف المعجمي لم يظهر هكذا من غير متكئ وخاصة في بداياته الأولى، بل إنّ المدرسة المعجمية المشرقية بجميع فروعها قد ساهمت وبقوة في هذا التأليف، إذْ أثّرت مبادئ وقوانين هذه الأخيرة في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي أيما تأثير، وهو الأمر الذي سنتطرق إليه في هذا البحث الذي وسمناه بـ " تأثير الصناعة المعجمية لبلاد المشرق في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي (بداية من ق 3هـ وحتى ق 12هـ)" محاولين معرفة أين ظهر هذا التأثير، من خلال إبراز نماذج من المؤلفات والمعاجم التي تأثرت بالمدرسة المعجمية المشرقية في تأليفها، محاكاة في المنهج وتأليفاً على منوال المعجمية المشرقية، ثمّ نأتي على ذكر مرحلة أخرى من

هذا البحث هي مرحلة ما بعد التأثر أو مرحلة الإبداع المعجمي في الأندلس والمغرب، وذيلنا بحثنا بخاتمة بأهم النتائج التي استخلصناها من هذا البحث.

أمّا الهدف من هذا البحث فهو التنبيه إلى وجود تأليف معجمي عربي أندلسي ومغربي متميز، كان للدرس المعجمي المشرقي أثر واضحٌ فيه، وذلك ضمن العلاقة بين هذين التأليفين المشرقي والمغربي، كما نسعى إلى تنبيه الباحث في التراث المعجمي على أنّه هناك من المعاجم الأندلسية والمغربية ماهو موضع بحث جدير بالاهتمام تغافل وغفل عنه الكثيرون، وليس الهدف من هذا البحث هو حصر كلُ المؤلفات المعجمية للمدرسة المغربية والأندلسية وهو مما لا يسعنا المقام لطرحه، وإنمّا تقديم بعض النماذج المشهورة والتي تعتبر بحق معاجماً.

1. انتقال وتأثير المؤلفات والعلوم اللغوية من المشرق العربي إلى الأندلس والمغرب:

عرف الأندلس نهضة كبيرة في الحركة العلمية وخاصة اللغوية منها مع بداية القرن الثالث الهجري، وانتقال العلوم من المشرق العربي، وذلك من خلال الرحلات من وإلى الأندلس والتي كانت فريضة الحج المساهم الأول فيها، فكان طلّاب العلم في رحلتهم إلى بيت الله المحرّم ذهاباً أو اياباً يأخذون من علماء الحجاز مروراً ببغداد ومصر، فيتزودون منهم سائر العلوم الدينية والدنيوية، وبعد دخول مختلف العلوم لبلاد الأندلس أصبحت الرحلات العلمية واجبةً على طلاب العلم فكأنّها أصبحت فريضة ثقافية يؤدونها[1]، فعلى طالب العلم الراغب في تحصيل المعرفة أن يرتحل إلى ذلك الجانب الآخر الذي تطورت فيه العلوم، فكان منهم من يعود لوطنه ومنهم من يطيب له البقاء في بلاد المشرق، وهذا ناتجٌ عن ولعهم الشديد بالشرقي وهيمنته العلمية كما يذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته[2]، فكان ذلك الاهتمام الكبير بكل ما هو وافد من المشرق، وكان التتلمذ على يد العلماء المشارقة هو مبلغ ومطمح الأندلسيين والمغاربة، فكثُر الرحالة إلى المشرق وازداد اهتمامهم بطلب العلم من هناك، فالمقري يحصي 307 راحل أندلسي إلى المشرق[3]، وهذه الرحلات كما ذكرنا كانت بسبب التفوق العلمي الذي عرفه المشرق العربي.

وليست هذه الرحلات وحدها من أثرى الحركة العلمية اللغوية في الأندلس، بل وُجدت عوامل وأسباب أخرى كانتقال كبرى المؤلفات اللغوية للفراء والكسائي مع التجار الذين يسافرون نحو المشرق لقضاء مختلف حاجياتهم، وكذلك حرص الحكام الأندلسيين على الرقي بالعلم وتطويره من خلال تحفيز العلماء والمؤلفين وإغداقهم بالمال والهدايا، مما جعل الحركة اللغوية وخاصة في

القرن الرابع الهجري تزداد تطوراً سواءً بالتأليف أو بالتعليم، ومن بين الحكام الذين كان لهم كبير الأثر في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس الحكَم المستنصر(ت366هـ) الذي يعد عالماً فذاً في عصره، أولى اهتماماً كبيراً بنقل العلوم والمؤلفات وجمعها في مكتبته «فقد كان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعاً للكتب في كل أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله...وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها... وجمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلّا ما يُذكر عن الناصر العباس المستضيء»[4]، ففي عهده انتشر الاهتمام بالعلوم وبالكتب وارتحل العلماء لطلب العلم وجلب المؤلفات من المشرق والعمل على تدارسها وتعليمها لطلاب الأندلس، وكذا الاستفادة منها في التأليف وحتى التأليف على منوالها.

فكان المستنصر الراعي الأول لهذه الحركة والقائم عليها من خلال تطبيقه لاستراتيجية دعم العلماء والمؤلفين عامةً واللغويين منهم خاصة، وحتى دعوته لعلماء من خارج الأندلس من أجل الأخذ عنهم ومثاله دعوته للقالي (ت356هـ) الذي دخل الأندلس سنة (330هـ/941م)[5] ملبياً هذه الدعوة وجالباً معه أحمالاً من الكتب العربية القديمة، من أجل تعليمها لطلبة العلم هناك.

وفي هذا المقام سنحاول التعرض ليس لجميع العلوم والمؤلفات اللغوية التي عرفت تطوراً في الأندلس وإنما عرض مجموعة من الآثار اللغوية وخاصة المعجمية منها والتي تأثرت بالتأليف المعجمي في المشرق العربي وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

فقد كان تأثير اللغويين المشارقة واضحاً في علماء الأندلس وفي مؤلفاتهم قبل القرن الرابع هجري، وطلبهم للعلم من المشرق وجمع مؤلفاته ولقائهم والتتلمذ على يد علمائه مهما بلغ بُعد المسافة دليل آخر على رغبة الأندلسيين وحبهم للعلم وطلبه، فنجد مثلا أبا موسى الهواري الذي صنفه الزبيدي في طبقاته ضمن الطبقة الأولى من النحويين واللغويين الأندلسيين، أنّه «قد رحل في أول خلافة عبد الرحمن معاوية رضي الله عنه، فلقي مالكاً ونظراءه من الأئمة، ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري»[6]، ومثله جودي النحوي (ت198هـ) الذي رحل إلى المشرق «فلقي الكسائي والفراء و غيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي»[7]، وكذلك عباس بن ناصح الجزيري ومحمد بن عبد السلام الخشني والأفشنيق ومحمد بن يحيى الرياحي ومنذر بن سعيد

البلوطي وغيرهم ممن ذكرهم الزبيدي وأكّد على أنّهم كانوا يرتحلون إلى المشرق ويأخذون عن علماء العربية هناك أمثال المازني والرياشي والدينوري وابن ولاّد وغيرهم ممن أخذوا عنهم النحو وعلم الحديث، فأدخلوا بذلك كتبهم وكتب سابقيهم ككتاب سبويه والخليل إلى الأندلس عن طريق هؤلاء.

فأمام هذا الزخم من الكتب اللغوية حدث التأثير المشرقي في علماء الأندلس، وخاصة في حقل تأليف المعاجم على غرار الحقول اللغوية الأخرى، فقد عرف الأندلسيون معجم العين بن أحمد بحسب الزبيدي خلال القرن الرابع الهجري وذلك من خلال الرحلات طبعا كما ذكرنا، فكان ثابت بن عبد العزيز(ت313ه) وابنه قاسم أوّل من أدخل كتاب العين الأندلس[8]، ودخلت نسخة أخرى من العين على يد منذر بن سعيد البلوطي (ت270ه) مروية عن ابن ولاد[9]، فراح العلماء يتدارسونه ويولونه اهتماماً خاصاً بالشرح والاستدراك والتأليف على منواله لعلمهم بما يحمله من قيمة علمية كبيرة، فهذا أبو علي القالي يؤلف معجمه البارع ينهج فيه نهج الخليل من حيث النظام الصوتي، والذي اعتبره أحد الباحثين نسخة من العين وهذا راجع لكثرة ذكر الخليل في البارع وكثرة النقل عنه[10]، أي أن اللغويين الأوائل في الأندلس اعتبروا العين مؤلفهم الأم الذي استقوا منه دراساتهم وتأليفهم المعجمي فيما بعد، وأبدعوا باتخاذهم منهجاً خاصاً في التأليف المعجمي كان له أثره الخاص في إطار التأليف المعجمي العربي وهو ما سنوضحه لاحقا في البحث.

كما نجد أنّ علماء الأندلس قد اهتموا بنوع آخر من المعاجم قبل القرن الرابع الهجري وذلك خلال القرن الثالث الهجري، وهي معاجم الغريبين والتي ألفوا فيها مقتفين أثر الأوائل في هذا النوع من التأليف المعجمي، ومثاله تأليف عبد الملك بن حبيب السلمي (ت239ه) لكتاب في غريب الحديث ومثله تأليف عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني (ت286ه) لكتاب في هذا النوع وكلاهما مفقود، وتأليف آخر اعتمد فيه صاحبه منهج الغريبين لأبي عبيد القاسم بن سلام(ت224ه) وأبي محمد بن قتيبة (ت276ه) وهو كتاب الدلائل لقاسم بن ثابت السرقسطي الذي ألّفه بالأندلس سنة 299ه[11]، فهذا تأثير مشرقي واضح في تأليف هذا النوع من المعاجم سار فيه لغويُّ الأندلس مسار لغويي وعلماء الحديث في المشرق العربي.

ما سبق يوضح بإيجاز تأثر علماء اللغة بالأندلس بالمدرسة الأم في المشرق، وهو الحال كذلك في المغرب العربي فقد تأثر هناك النحويون واللغويون أيما تأثر بعلماء المشرق وبكتبهم عبر مختلف المراحل، فكان تدارس المعاجم وتأليفها من اهتماماتهم أيضاً فقد عرفوا هذا المجال مع العلماء الأندلسيين خلال القرن الرابع الهجري من خلال رحلاتهم والبحث عن أهم الكتب في هذا المجال، فألفوا كتباً تعد البدايات الأولى لتأليف المعاجم نجد منهم عبد الملك بن قطن المهري القيرواني المكنى أبا الوليد (ت253هـ) والذي يذكره الزبيدي بأنّه لقي في رحلاته ابن الطرماح وعياض بن عوانة وقتيبة النحوي، كما يذكر أنه قد ألّف كتاباً بعنوان كتب الألفاظ[12].

وهو كتاب انتهج فيه صاحبه ترتيب المواد وفق أبواب الموضوعات والحقول المعرفية[13]، متأثراً بمنهج ابن السّكيت (ت243هـ) في مؤلفه كتاب الألفاظ الذي يعتبر أقدم معجم في المعاني، فمؤلف أبو الوليد المهري يعد من بدايات التأليف المعجمي في المغرب العربي بعد حصول التأثر من التأليف المعجمي في بلاد المشرق العربي، وهناك العديد أيضا من المعاجم التي ألّفت في المغرب العربي مع بداية القرن الرابع الهجري وحتى القرن الثاني عشر الهجري والتي كانت بحق معاجم رسخت مادتها العلمية واستفاد منها علماء المغرب والمشرق معاً، وسنأتي لذكر بعضها في موضعٍ آخر من هذا البحث.

2. تأثير المدارس المعجمية المشرقية في التأليف المعجمي بالأندلس والمغرب:

لا شك أنّ تأثير الدراسات المعجمية المشرقية كان له كبير الأثر في التأليف المعجمي الأندلسي، فمعاجم المشرق والمدارس التي تمخضت عن ذاك الانتاج المعجمي الخصب والغزير لم يتجاوزها اللغويون والمعجميون في الأندلس دون أن يضعوا مؤلفاتهم على نسق إحدى تلك المدارس وينهجوا نهج سابقيهم في هذا الحقل اللغوي.

وبدايات هذا التأليف نجدها مع أبي علي القالي (ت356هـ) الذي ألّف معجمه "البارع" بطلب من الحكم المستنصر أو بالأحرى هذا الطلب جاء لإتمامه وهذا استناداً لما ذكره القفطي في انباه الرواة عن ما شوهد بخط يد ولده عن سبب تأليف القالي لمعجمه[14]، فالبارع إذا أوّل معجم في الأندلس[15] _على حد تعبير محقق كتاب البارع_ سار فيه صاحبه على منهج الخليل في ترتيب حروف المعجم ترتيباً صوتياً ولم يرتبه ترتيباً ألفبائياً بالرغم من أنّ هذا النوع كانا قد شاع في المشرق في تأليف المعاجم كما وافقه أيضا من حيث منهج اعتماد مبدأ الأبنية عامة مبدأ التقاليب في

ضبط المادة اللغوية، غير أنّ القالي قد خالف الخليل في ترتيب بعض حروف معجمه بالتقديم والتأخير[16]، فالقالي إذاً قد اتّبع نهج المدرسة المعجمية الخليلية في المشرق العربي وتأليفه للبارع ولكتابه المقصور والممدود أيضاً خير دليل على أنّ أثر المدرسة المعجمية المشرقية قد أرسى قواعده الأساسية في التأليف المعجمي الأندلسي حتى وإن وُجدت بعض الانزياحات عن المدرسة الأم هي باب الابداع والسبق بطبيعة الحال.

وبعد ظهور معجم البارع في الأندلس ألّفت حوله وحول العين العديد من الشروح والحواشي والتعليقات أهمها وأشهرها "مختصر العين" الذي يعتبر ثاني معجم ظهر بالأندلس للزبيدي تلميذ القالي وهو اختصار للعين نال رواجاً في الأندلس وخارجها، ونجد كتابا آخر للمؤلف نفسه وهو "استدراك الغلط الواقع في كتاب العين" وهو كتاب حقق مقدمته عبد العلي الودغيري وحقق الباقي منه وقدّم له صلاح مهدي الفرطوسي، وكذا كتاب "استدراك على كتاب البارع" حول البارع فقط لأبي مروان عبد الملك بن سراج (ت 489هـ)، والعديد من الحواشي والتعليقات التي أفادت في الاحتفاظ بقدر هام مما ضاع من البارع[17] لأنه لم يصل إلينا كاملاً.

ومن المعاجم اللغوية التي ألّفها أصحابها على منهج الخليل نجد كتاب "المحكم" لأبي الحسن ابن سيدة المرسي (ت485هـ) الذي ألّفه على حروف المعجم مرتبة ترتيبا صوتياً فاتّبع القالي بذلك أيضاً، ولم يعتمد نظاماً آخر في الترتيب كان قد ظهر في المشرق هو الترتيب الذي ظهر مع معجم الصحاح للجوهري (ت398هـ) والذي أحدث ثورة في التأليف المعجمي لأنه خالف منهج الخليل باعتماده الترتيب الألفبائي لا الترتيب الصوتي وكذلك اعتماد آخر الكلمة في ترتيب الأبواب، فرغم ظهور هذا الترتيب الجديد إلاّ أنّ ابن سيدة قد تأثر بالخليل والقالي في تأليف معجمه هذا، وهو معجم وصفه ابن منظور بأنه من أكمل المعاجم وعدّه من أمهات الكتب في اللغة وهو في ذلك مع معجم التهذيب للأزهري[18]، وله مصنف لغوي آخر وهذه المرة خالف فيه منهج الخليل والقالي وهو كتابه "المخصص" وهو على التبويب أي على منهج المعاني أو الموضوعات كما يذكر هو ذلك في مقدمة المحكم فيقول: «...وألّفت كتابي الملخَّص، والذي أسميته "المخصَّص" وهو على التبويب، في نهاية التهذيب»[19]، فقد تأثر واستفاد[20] ابن سيدة في معجمه الثاني هذا من مختلف الدراسات والمعاجم التي سبقته والتي ألّفها أصحابها وفق الموضوعات كغريب أبي عبيد، وفقه اللغة للثعالبي وألفاظ ابن السكيت وغيرها من الرسائل اللغوية

التي سبقت تأليفه هذا، فابن سيدة إذاً قد تأثر بالمدرسة المعجمية الخليلية وكذا بمدرسة الترتيب الموضوعاتي وهذا ما أثرى تأليفه للمعجمين بمادة لغوية يستفيد منها الباحث.

ونجد تأليفاً آخر في القرن الخامس الهجري ألّفه صاحبه على مبدأ المدرسة الألفبائية التي أرسى قواعدها الجوهري في الصحاح وقبله الشيباني (ت213هـ) في كتابه "الجيم"، وهذا المعجم هو "المؤعَب" لأبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيّاني (ت436هـ)، وهو كتاب «وإن كان مبوباً حسب الأبنية فإنّ مواد كل باب قد رتبت على طريقة الصحاح»[21]، فهو إذا معجم ألفبائي تأثر صاحبه في ترتيبه بمن سبقوه من المدرسة المعجمية الألفبائية في المشرق.

ما تقدّم طرحه نماذج فقط من معاجم لغوية ألّفت في الأندلس اعتمد فيها أصحابها منهج سابقيهم في هذا النوع من التأليف المعجمي في المشرق العربي، فاتضّح بذلك تأثرهم بالمدارس المعجمية المشرقية على اختلافها، وهو الحال كذلك بالنسبة للمعاجم التي ألّفت في المغرب العربي ابتداءً من القرن الرابع الهجري على يد علماء اللغة في المغرب العربي من القيروان وطرابلس والمغرب الأدنى والأقصى والأوسط، نجد منهم المهري الذي ألّف كتاب الألفاظ وقد تقدّم ذكره في هذا البحث، وهناك مؤلفٌ آخر نال حظه من الشهرة والذيوع هو كتاب "كفاية المتحفظ في اللغة" لابن الأجدابي الطرابلسي، الذي تؤرخ له بعض المصادر أنّه ألّفه في القرن الخامس الهجري، وهو من أشهر ما ألّف يصفه الحموي بأنه كتاب «صغير الحجم كثير النفع»[22] ، فهو إذا معجم لم يكن كالمعاجم التي سبق ذكرها والتي تمتاز بضخامتها وموسوعية المادة العلمية فيها، بل هو كتاب يحوي قدراً لابأس به من ألفاظ العربية موجه للمتعلم وليس لمن أراد التبحر في علوم العربية وهذا مانستشفه من قول المؤلِف نفسه في مقدمة كتابه، يقول ابن الأجدابي:« هذا كتاب مختصر في اللغة، وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات، واعريناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرُب تناوله، وجعلناه مغنياً لمن اقتصر في هذا معيناً لمن أراد الاتساع فيه، وهو على التبويب»[23]، فهو معجم ألّفه صاحبه مختصراً كما ذكر، خالياً من الشواهد القرآنية أو الشعرية، موجه لمن أراد تعلم معاني العربية، كما أنّه رتبه وفق موضوعاتٍ وأبواب لا وفق ترتيبٍ آخر، فهو إذاً اتّبع نهج من سبقوه في التأليف بحسب الموضوعات، وهي أبواب في صفات الرجال والنساء، والحيوان والأواني وغيرها...

يظهر تأثر ابن الأجدابي بمدرسة المعاني المعجمية من خلال تأليفه هذا بالرغم من أنّه لم يرتحل يوماً إلى المشرق[24]، غير أنّه استفاد ممن كانوا يدخلون طرابلس ومن علمائه الذين تتلمذ على يدهم هناك، فانتقلت إليه مبادئ ومنهج تأليف المعاجم، مع انتقال العلوم والمعلمين والمؤلفات اللغوية نحو المغرب العربي.

وظهر قبل ابن الأجدابي لغوي آخر ذكره الحموي في معجمه الأدباء، هو كتاب "الجامع في اللغة" لمحمد بن جعفر القزاز القيرواني[25] (ت412هـ) وهو مرتباً بحسب حروف المعجم، ووصفه الحموي بأنّه كبير وذو قيمة عاليه وقاربه من معجم التهذيب للأزهري.

وما ورد ذكره سابقاً هو ذكرٍ لبعض المعاجم اللغوية في الأندلس والمغرب العربي، وليس جلّها طبعاً لأنّ الغرض من ذكرها في هذا البحث كما أشرنا سابقاً ليس حصرها، وإنّما إبراز مدى تأثر اللغويين الأندلسيين والمغاربة في تأليفهم لمعاجمهم بالمدارس المعجمية المشرقية التي أرست قواعدها بقوة في ميدان التأليف المعجمي، فنلاحظ فعلاً أنّ تأثير المدارس المعجمية المشرقية واضحٌ وبشكل جلي في مناهج التأليف عند الأندلسيين من خلال تأليفهم لمعاجمٍ لا تخلو من المبادئ والأنظمة المعجمية المشرقية.

3. مرحلة ما بعد التأثر أو مرحلة التأليف المتخصص:

بعد تأثر اللغويين الأندلسيين والمغاربة باللغويين المشارقة في المرحلة الأولى من تطور الحركة اللغوية، جاءت مرحلة أخرى تجاوز فيها علماء اللغة في الأندلس نوعاً ما ذلك التأثر بعد استيعابهم لما تأثروا به، فأبدعوا وأنتجوا نوعاً جديداً من التأليف المعجمي لم يسبقوا إليه من قبل، وهو كنتيجة لاكتمال ونضج التأليف المعجمي عندهم، بعدما تتلمذوا فيه على يد علماء المعجمية المشرقية.

وما سنعرض له في هذا الموضع من البحث هو إظهار لبعض النماذج والأمثلة من المعاجم الأندلسية والمغربية التي كانت لها بصمتها الخاصة في التأليف المعجمي والتي استفاد منها الباحثون ولا يزالون إلى يومنا هذا.

هذه المعاجم أبرزت الشخصية المتفرّدة التي عرفها الأندلس، والتي أبرزت منهجاً جديداً في تأليف المعاجم هو تأليف المعاجم المتخصصة في مجالات علمية معينة، ترقى إلى التصنيف المعجمي اليوم، وليس معنى هذا أنّ العرب لم يعرفوا هذا النوع من التأليف اطلاقاً، فرسائل

الموضوعات التي ألّفها اللغويون العرب قبل القرن الرابع الهجري تعتبر من البذور الأولى لهذا التأليف، فقد كانت الرسائل اللغوية مدونات لغوية حملت مصطلحات في مجالات معينة، ولكنّ أصحابها لم يخضعوها لنفس المبادئ التي عرفها المعجم العربي في الأندلس والمغرب بعد القرن الخامس الهجري وحتى القرن الثاني عشر الهجري.

ففي الأندلس مثلاً أُلفت معاجم كان لأصحابها فضل السّبق في التأليف، وأثاروا بذلك مجالاً جديداً للتأليف المعجمي، فنجد على سبيل المثال كتب الأفعال التي أُلّفت في مجال أكثر تخصص من المجال اللغوي العام قد حضيت بالتأليف من طرف لغويين كبار أبي عثمان محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن الحداد (ت400هـ) بتأليفه لأشهر كتاب في هذا المجال هو "كتاب الأفعال"، أي ضمنه الأفعال فقط، رتبه ترتيباً صوتياً متبعاً في ذلك سبويه، كما أنّه رتّب المواد داخل كل حرف ترتيباً جديداً[26].

وفي نفس المجال اللغوي ظهرت كذلك كتب الأسماء التي تهتم بجمع الأسماء والصفات فقط وهو حقل لغوي متخصص أيضاً، وأشهرها في الأندلس هو كتاب المثلثات لأبي محمد البطليوسي (ت521هـ)[27] والذي اتّبع فيه منهج قطرب (ت206هـ) في كتابه، مرتباً إياه ترتيباً جديداً هو الترتيب الأبجدي المغربي الذي يختلف عن الترتيب الأبجدي الأندلسي والترتيب الأبجدي المشرقي، كما أنّه أغزر مادة من كتاب قطرب.

وهناك نوع آخر من المعاجم المتخصصة في غريب الحديث وغريب القرآن وهي كتب الغريبين التي ألفها الأندلوسيون كما ذكرنا سابقاً مع بداية الفتح الإسلامي للأندلس وذلك عناية منهم بالقرآن والعربية، وأشهر ما أُلّف في الأندلس في هذا المجال تنطبق عليه صفة المعجم العربي فعلاً هو كتاب "تحفة الأريب بما في القرآن من غريب" لأثير الدين أبي حيان النحوي (ت745هـ)[28]، وهو معجم مرتّب ترتيباً ألفبائياً مبتدئاً بالهمزة ومنتهياً بالياء، ولم يعتمد على الشواهد الشعرية في شرحه للألفاظ مختصراً إياها بمعانيها التي وردت في القرآن.

وعرف الأندلوسيون بعد ما سبق من التأليف حقلاً آخر ألّفوا فيه هو مجال الطب والصيدلة، الذي وضعوا فيه مؤلفات كبرى ترقى إلى أن تكون معاجم متخصصة في هذا المجال بحق، وقد عُرف هذا النوع من المعاجم في بدايات تأليفه في الأندلس والمغرب بكتب الأدوية المفردة، فظهرت بواكيره مع مؤلَّفٍ للشاعر الشهير أمية بن أبي الصلت بن عبد العزيز (ت252هـ) بعنوان "كتاب

الأدوية المفردة"، ألّفه صاحبه في أنواع الأدوية ورتّبه ترتيباً موضوعياً بحسب الأمراض[29]، أمّا في المغرب العربي فإنّ أشهر كتاب في هذا المجال هو لابن الجزّار القيرواني (ت396هـ) الطبيب المشهور وهو كتاب "الاعتماد في الأدوية المفردة"[30]، ولقد كان له فضل سبق الأوائل في أنّه فصل بين مجال الطب والصيدلة في هذا الكتاب الذي ضمّنه مصطلحات للأدوية فقط وليس كل الأدوية بل الموجودة في عصره فقط والمشهور منها والسهل ايجاده فقط، كما أنّه رتّبه ترتيباً موضوعياً بحسب درجات الأدوية (حار، بارد، يابس، رطب)[31]، وهذا دليل على أنه معجم متخصص فعلاً بحيث أنه موجّه لجمهور خاص هم الصيادلة وليس لعامة الناس.

أمّا في الأندلس فأشهر مصنَفٍ طبي والذي يمكن أن يُطلق عليه معجماً خاصاً بامتياز هو كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" للعالم والطبيب الشهير ابن البيطار (ت 646هـ) والذي ألّفه في أواخر حياته، اعتمد في الترتيب الألفبائي، واعتماد الحرفين الأول والثاني في المصطلح، ولم يلتفت إلى الحرف الثالث، وقد سمّاه الجامع[32] لأنّه ضمّنه مجموعة مصطلحات كبيرة وردت في معاجم العرب واليونان في مجال الأدوية والطب قبله.

وقد استّمر هذا النوع من التأليف حتى القرن الثاني عشر الهجري في المغرب العربي، ففي القرن العاشر الهجري ألّف الغساني المغربي المعروف بالوزير كتاباً في أواخر هذا القرن (994هـ) سمّاه "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار" اعتمد فيه الترتيب الأبجدي المغربي[33]، وتواصل هذا التأليف حتى القرن الثاني عشر الهجري في حقل الأدوية هو كتاب في الأدوية المفردة لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري الذي ألّفه ضمن كتابه "الجوهر المكنون من بحر القانون" في الجزء الرابع وهو الجزء الذي بقي من الكتاب وعُرف ونشر بعنوان "كشف الرموز في بيان الأعشاب"[34]، وهو عبارة عن معجم صيدلي وطبي يحمل أوصافاً لمصطلحاتٍ طبية وصيدلانية وأسناء نباتات وعقاقير وغيرها، رتّبه ترتيباً أبجدياً مغربياً، وطُبع أولاً بباريس سنة 1874م، ثمّ طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1321هـ[35]/1903م.

وعودة للقرن السابع الهجري نجد كتابا آخر في المغرب العربي، يعتبر من المعاجم المتخصصة في مجال المعادن والأحجار الكريمة، وهو كتاب " أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" لأبي العباس أحمد بن يوسف بن محمد التيفاشي (ت651هـ)، وهو كتاب يمكننا القول بلأنّه من المعاجم المتخصصة في ميدان الأحجار الكريمة، وذلك لما ضمّنه من أوصافاً للهذه الأحجار، وقد ذكر

خمسةً وعشرين حجراً بالتفصيل (الجوهر، الياقوت، الزمرد، الزبرجد، البلخش، البنفش،...)، وقد كل واحدٍ من هده الأحجار بفصل منفردٍ، يورد فيه وصفه وسبب تكوينه، وذكر المكان الذي تكوّن فيه، ثمّ ذكر جيده و رديئه ومغشوشه وخالصه، ثم يذكر خواضه ومنافعه، وأخيراً قيمته وثمنه في السوق[36]، وهو معجم حققه محمد يوسف حسن و محمود بسيوني خفاجي، بإشراف الهيئة المصرية العامة للكتاب، ونشر سنة 1977م كطبعة أولى للكتاب.

وبكتاب التيفاشي نكون قد وصلنا إلى ختام هذا الجزء من البحث، والذي تأكّد فيه أنّ المعاجم العربية المغربية والأندلسية مع بداية القرن الخامس الهجري وحتى الثاني عشر الهجري قد عرفت مرحلة جديدة في التأليف المعجمي وهو التأليف المتخصص الذي أبدع فيه اللغويون في هذه الفترة، وذلك بوضع معاجم خُلّد ذكرها في المعجم العربي الأندلسي والمغربي المتخصص على غرار المعجم المتخصص في المشرق العربي، ولم يدخر مؤلفو معاجم الأندلس جهداً واحداً في سبيل تسهيل وتقريب كل ماهو صعب للباحث في أي مجال كان.

خاتمة:

من خلال جميع ما تقدّم ذكره عن المعاجم الأندلسية والمغربية، يمكننا أن نستخلص مجموعة من النتائج نذكرها على النحو الآتي:

- أنّ التأليف المعجمي العربي الأندلسي والمغربي منذ الفتح الإسلامي للأندلس وخلال القرن الرابع الهجري، لم يظهر هكذا من العدم، بل كان للمدرسة المعجمية العربية المشرقية بمناهجها وفروعها الأثر الواضح في هذا التأليف من خلال المعاجم التي ألّفها اللغويون والمعجميون في المغرب والأندس.
- أنّ المعاجم العربية التي ألّفت في القرن الرابع الهجري وما جاء بعده هي معاجم سار فيها أصحابها على نهج من سبقوهم في هذا التأليف من مشارقة، وذلك من خلال احتكاكهم بمؤلفات المشرق العربي، وحتى من خلال لقاءهم بكبار اللغويين في المشرق من خلال رحلاتهم التي كانوا يقومون بها نحوه.
- نستخلص أيضاً أنّ التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي في بداياته الأولى عرف نوعاً من المحاكاة والتقليد _الذين لا ينفيان الأصالة طبعاً_ لما ألّفه المشارقة في هذا المجال، وهذا

كله قبل أن يبدأ المعجم العربي الأندلسي والمغربي بشق طريقه نحو الإبداع والتميز يحاكي مرحلة النضج والاستيعاب التي وصل إليها مؤلفوا هذا المعاجم.

- هذا النضج يظهر من خلال المعاجم المتخصصة التي ظهرت مع بداية القرن الخامس الهجري وحتى الثاني عشر الهجري، في جوانب معرفية متعددة أضافت إلى المكتبة المعجمية العربية القيمة الواضحة والثرية في النحو والفقه والطب والتاريخ وغيرها، تفيد الباحث في مجاله، كما أنها تفتح الباب أمام الباحث المتخصص في المعجمية أن يجعل واحداً من المعاجم التي ذكرنا أو الكثيرة التي لم يسعفنا المقام بذكرها، مجالاً منفردا وخصباً للبحث والدراسة.

هوامش:

[1] ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، رسالة مقدّمة لنيل درجة أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية بيروت، لبنان، 1965، ص 32.

[2] ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، 2004، ط1، ج2، ص 168.

[3] محمد إفرخاس ونادية صلاح، رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز ثقافة التواصل، دت، دط، الإمارات، ص 18.

[4] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، دط، مج 1، ص ص 385-386.

[5] عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ط1، ص 8.

[6] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، 1984، ط1، ص 253.

[7] المرجع نفسه، ص 254.

[8] نفسه، ص 284.

[9] نفسه، ص 295.

[10] عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مرجع سابق، ص 38.

[11] المرجع نفسه، ص 111.

[12] الزبيدي، مرجع سابق، ص 229.

[13] عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربي إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ط1، ص 62، نقلاً عن جميلة راجاح، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي، أطروحة مقدمة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2015، ص 97.

[14] ينظر جمال الدين القفطي، انباه الرواة عن أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1986، ط1، ج1، ص 244.

[15] أبو علي اسماعيل القالي البغدادي، تح: هاشم الطعان، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان، 1975، ط1، ص 64.

[16] للتوسع يُنظر: عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 25 ومابعدها.

[17] المرجع نفسه، ص 47-52

[18] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، دط، مج1، ص 7.

[19] أبو الحسن ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ط1، ج1، ص 36.

[20] عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 86.

[21] المرجع السابق، ص 61.

[22] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1933، ط1، ج1، ص 51.

[23] ابن الأجدابي، كفاية المتحفظ في اللغة، تح: السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دط، دت، ص 36.

[24] ينظر مقدمة المحقق، المرجع نفسه، ص 3 وما بعدها.

[25] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مرجع سابق، ج5، ص 2475.

[26] ينظر الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مرجع سابق، ص 10.

[27] المرجع السابق، ص 108.

[28] نفسه، ص 112.

[29] إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993، ط1، ص ص 49-128.

[30] المرجع نفسه، ص ص 45-121.

[31] إبراهيم بن مراد، دراسات في المعجم العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ط1، ص 22.

[32] الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مرجع سابق، ص 115.

[33] إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي، مرجع سابق، ص 117.

[34] المرجع نفسه، ص 42.

[35] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، كشف الرموز في بيان الأعشاب، اعتنى به جبريت كولين، 1905.

[36] ينظر مقدمة كتاب أحمد بن يوسف التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، دط، دت.